

**ألحان الطيور وصداها في نفوس الشعراء الأندلسيين**

د. أحمد حدادي

(فاس المغرب)

لما كان الحديث عن وصف الطبيعة في مثل هذه المناسبة من النوافل، فإنه يكفي أن أحيل القارئ على الكتب الكثيرة في التراث الأدبي الأندلسي من مصادره القديمة ومراجعته الحديثة ليجد الجواب المقنع والحجة البالغة إذا ما سأل سائل عن ذلك. وإن اختياري لموضوع الطيور في هذا الأدب ليرجع إلى علاقة ذلك بالجانب البديع من وصف الطبيعة ولما له من الآثار النفسية والعقلية والروحية في حياة الشاعر الأندلسي خاصة، ثم لما لهذه المخلوقات من الأثر الكبير في نفس الإنسان عامة، فقد كان يستلهم من مناظر الطيور وأصواتها وألحانها وحركاتها كثيرا من جوانب الفرح والألم والسعادة والشقاء والتأؤل والتشاوم، تلك هي الحياة وذلك هو الإنسان في السراء والضراء.

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا نَضْرَةٌ أَيُّكَةٍ مَتَى اخْضَرَ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبُ

هذه هي نظرة الأندلسي إلى الدنيا وإلى الحياة، وهو يصارع غمراتها ويكابد أمواجه العاتية. وبما أن الإنسان ترتبط حياته بآماله وآلامه فإنه بمجرد ما يطرقه حادث من الحوادث يحاول أن يربطه بالخير أو الشر أو ما يصدر منه بالرجوع إليهما، وقد يكون لذلك علاقة بيقظته ونومه، ولهذا تجده يؤول الأحلام وفق تلك الآراء المعروفة في كتب التراث الإسلامي أو وفق النظريات الحديثة المشتهرة، وذلك تبعا للوقائع التي يمكن أن تؤثر في حياته تأثيرا سارا أو مقلقا، وهكذا نجد هذا الإنسان الأندلسي يرى الخير والشر بمنظار خاص، وما هذه الطيور بألوانها وأصواتها وألحانها وحركاتها سوى صدى يردد لنا ما لهؤلاء الشعراء الأندلسيين من مكنونات أنفسهم وعقولهم في حالتها اليقظة والنمام. ولا شك في أن دارس كتب الحيوان وكتب النبات والأزهار والأشجار وكتب الصيد والبيزرة وغيرها، تتكشف له أسرار كثيرة وقضايا

وظواهر معجبة تتصل بهذا الميدان. وعند الرجوع إلى دواوين شعراء الأندلس يتبين لنا أن أغلب الأوصاف والتشبيهات والمعاني تدور حول أنواع معينة من الطيور، فلو أخذنا مثلاً ديوان ابن خفاجة لوجدنا أن عدد أسماء الطيور الواردة فيه سبعة وهي الحمام والمكء والعصفور والقطاة والبازي والنسر ثم الطائر على عموم لفظه. وإذا شئنا تبين نسبة ورود هذه الطيور في بعض الدواوين فإننا نجد أنها وردت في نفس هذا الديوان على النسب الآتية :

الحمام : 34 مرة- عامّة الطير 15 مرة- المكء 3 مرّات- البازي (مرتين)-  
العصفور مرة واحدة - القطاة مرة واحدة - النسر مرة واحدة (1).

وقد تختلف هذه النسب من ديوان إلى ديوان، لأن لكل شاعر طبيعة خاصة قد تميل إلى طائر معين ولأنه يمثل آماله وآلامه، وتشير كذلك إلى قوته وضعفه من حيث النفس والعقل والهمة والطموح، ومع ذلك يبقى ذكر الحمام وما يصنف في نوعه كالليم والحمام والراعي والقمرى والورداني أوفر نصيباً وأكثر ذكراً، يقول الدكتور حازم عبد الله خضر : « تجدر الإشارة إلى أن فكرة الربط بين شجو الحمام وإثارة الذكريات والآلام والأحزان فكرة مشرقية طرقتها عدد غير قليل من الشعراء في العصور والفترات المختلفة غير أن الأندلسيين قد يختلفون عنهم في طريقة معالجتهم لهذا الربط والنتائج التي يرتبونها عليه بالإضافة إلى تغنّهم في تأليف الصور والجزئيات المستحسنة وطرق المزج بين مشاعر الإنسان ومشاعر هذا الحيوان مع الإفادة من المعاني التي تصوّر البيئة الأندلسية في مظاهرها وأشكالها وأحوالها المختلفة والنفسية الأندلسية في نزعاتها العديدة وأحوالها الكثيرة وفي ظلّ العديد من الظروف والملابسات...» (2).

(1) انظر ديوان ابن خفاجة. تحقيق الدكتور سيد غازي ط 2، 1979، ص 408.

(2) وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين للدكتور حازم عبد الله خضر. دار الشؤون الثقافية العامة بغداد 1987. ص 108، 110.

وبعد أن رجعت إلى بعض الدواوين والمجموعات الشعرية وغيرها تبين لي أن أغلب الأوصاف والتشبيهات والمعاني كانت تدور حول أصناف معينة من الطيور، فقد جمعت حوالي ستين نموذجا من النماذج الشعرية فوجدت أنها ذكرت حوالي سبعة عشر نوعا من أنواع الطيور وهي مرتبة حسب تواتر ذكرها في مجموعة من المصادر والمراجع، وذلك كما يأتي :

الحمام 20 مرة- الطير بعامّة 14 مرة- العقاب 4 مرّات- الببل 3 مرّات- القمري 3 مرّات- البازي مرتين- الذيك مرتين- وورد مذكورا مرة واحدة : الدجاج- العنقاء- الفرخ- الجراد- ابن ورقاء- الغراب- الطاوس- البط- أبو حديج- الصقر.

ولكي نتعرف حقيقة هذا الشعر ومعانيه ينبغي أن ندرسه حسب الظروف التي قيلت فيه، وكذلك المعاني التي تشير إليه، وحسب أنواع هذه الطيور في قوتها كالنسر والصقر والعقاب والفرخ والبازي، أو حسب جمالها كالطاوس والحمام والقمري، أو حسب ضعفها كتنصوير الأندلسي في ظروف الانهزام العسكري والنفسي أمام العدو كالجراد والدجاج وغير ذلك من المعاني كالنشاوم من الغراب والاختيال للذيك الخ... وإليك هذه النماذج التي نستشف منها طبائع الأندلسيين ومكامن نفوسهم، ومن ذلك قول أبي إسحاق الإلبيري الغرناطي :

فبِحُسْنِ صَوْتِكَ مَا الَّذِي أَبْكَاكِ؟  
فَوْقَ الَّذِي بَكَ مِنْ شَدِيدِ جَوَاكِ  
مِنْ مُؤْنَسٍ لَكَ فَارْتَمَضْتَ لَذَاكِ  
بِخِلَافٍ مَا تَجِدِينَ مِنْ شَكْوَاكِ  
وَمَنَائِي فِي الشَّكْوَى مَنَالٌ فَكََاكِ  
وَتَجَاوَزَا فَبُكََايَ غَيْرُ بُكََاكِ (3)

أَحْمَامَةُ الْبَيْدَا أَطْلَلْتُ بُكََاكِ  
إِنْ كَانَ حَقًّا مَا ظَنَنْتُ فَإِنَّ بِي  
إِنِّي أَظُنُّكَ قَدْ ذُهِيتَ بِفُرْقَةٍ  
لَكِنَّ مَا أَشْكُوهُ مِنْ فَرْطِ الْجَوَى  
أَنَا إِنَّمَا أَبْكِي الذَّنُوبَ وَأَسْرَهَا  
وَإِذَا بَكَيْتُ سَأَلْتُ رَبِّي رَحْمَةً

(3) ديوان أبي إسحاق الإلبيري ص 33.

فهذا الشَّاعر أبو إسحاق الإلبيري الَّذي كان يحفظ شعره العامَّة والخاصَّة والصَّغار والكبار والرَّجال والنِّساء، يَصوِّر لنا نفسه عند سماعه الحماسة المطربة بذلك الشَّعور الدِّيني الَّذي يندب فيه نفسه ويذكر ذنوبه مستغفرا تائباً، ولهذا نجد أنَّ الأندلسيِّين في زمانه كانوا يطلبون شعره لحفظه وتفهمه واتِّخاذه سبيلاً إلى تهذيب العواطف والنَّفوس من أجل الرِّشد والتَّقوى وكفاح عناصر اليهود والأعداء. ولهذا كان شعره كصحيفة إعلاميَّة تطالع قراءها الَّذين يترقَّبونها بشغف كلِّ صباح. ثمَّ إنَّ تصويره أبدع ممَّا صوِّر به نفسه الشَّاعر المشرقي أبو فراس الحمداني الَّذي سمع حماسة وهو في أسره وكانت تتوح على شجرة فقال يخاطبها :

أقول، وقد ناحتْ بقربي حماسة	أيا جارتا هل تشعُرِين بحالي؟
مَعَاذِ الهوى ما ذُقْتَ طارقة النوى	ولا خَطَرْتُ مِنْكَ الهُمومُ ببالٍ
أَتَحْمِلُ مَحْزُونََ الفؤادِ قَوَادِمُ	على غُصْنِ نَائِي المَسَافَةِ عَالٍ؟
أيا جارتا ما أنصفَ الدَّهْرُ بيننا	تَعَالِيْ أُقاسِمُكَ الهُمومَ تَعَالِي
تَعَالِي تَرَي رُوحاً لَدَيَّ ضَعِيفَةً	تَرَدَّدُ في جِسْمٍ يُعَذِّبُ بَالِي
أَيُضْحَكُ مَأْسُورٌ وتبكي طليقة	ويَسْكُتُ محزونٌ ويندُبُ سَالٍ؟
لقد كُنْتُ أُولَى مِنْكَ بالدَّمْعِ مُقْلَةً	ولكنَّ دَمْعِي في الحَوَادِثِ غَالٍ (4)

هكذا صوِّر أبو فراس الحمداني نفسه الضَّعِيفَةَ في الأسر المقهورة بين يدي الأغلال، في وسط لا يلائمه ولا يؤاسيه ولا يناسبه. وشتان بين شعور أبي فراس وبين شعور أبي إسحاق الإلبيري. فهذا يذكر ذنوبه وأسرها وذلك يبكي فقدان الحريَّة وأسر الدُّنيا. ثمَّ إنَّ أبا إسحاق الغرناطي الإلبيري لم ينس ذكر ما يتَّصل بالدِّين والعقيدة.

وحططتْ رَحْلي تحت أُلُويَةِ الهُدَى	ولمَّا رَأَني اللّهُ تحت لِيوَالِكِ
هَجَرَ الغواني واصلاً لِعَقَائِلِ	يُضْحِكُنْ حُبًّا لِلوَلِيِّ البَاكِ
إني أَرِقْتُ لَهْنٍ لا لِحَمَائِمِ	تبكي الهديلَ على غُصُونِ أَرَاكِ

(4) ديوان أبي فراس الحمداني 238. دار بيروت للطباعة والنَّشر ط. 1979.

لا عَيْشَ يَصْنَفُو لِلْمُلُوكِ وَإِنَّمَا تَصْفُو وَتُحْمَدُ عَيْشَةُ النَّسَاكِ  
وَمِنْ الإلهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَاتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ وَعِدَّةُ الْأُمَلَاكِ (5)

نعم ما أحلى عيشة النَّسَاكِ وأصفاها وقد أجملها الذَّكْرُ الحَكِيمُ في الآية الكريمة :  
«إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ». وقد شرحها بعض المفسرين بأنهم أهل القناعة والرضا  
بالقليل. ومن أجود ما قيل في هذا الميدان أي ذكر الحمام قول ابن عبد ربّه :

وَإِنْ ارْتِيَا حِي مِنْ بُكَاءِ حَمَامَةٍ كَذِي شَجَنْ دَاوِيَتَهُ بِشَجُونِ  
كَأَنَّ حَمَامَ الْأَيْكِ حِينَ تَجَاوَبَتْ حَزِينَ بَكَى مِنْ رَحْمَةٍ لِحَزِينِ (6)

وهذا معنى بديع يشبه معنى أبي نواس الذي يداوي الداء بالداء والحزن بالحزن.

وقال ابن عبد ربّه كذلك وقد سمع حمامة تشجو :

وَلَرُبَّ نَائِحَةٍ عَلَى فَنَنِ تَشْجِي الْخَلِيَّ وَمَابَهُ شَجْوُ  
وَتَغَرَّدَتْ فِي غُصْنٍ أَكْتَطَا فَكَأَنَّمَا تَغْرِيدُهَا شَدْوُ (7)

ففي الأبيات الأولى يذكر الشاعر حمامة صادحة على الأفنان في شجو وحنين.  
ويبدو أن حمامة كانت ذات شجا حزين مما هيّجت عواطفه حتّى بلغ إحساسه الشعري  
ذروته عندما تصوّر تناغم شجا الحمامة الحزين وكأنّه انبعث بكاء لحزنه، وأمّا في  
البيتين الأخيرين فإنّه يكرّر نفس الصّورة بأسلوب رقيق يكشف عن ترجمة ذات  
الشاعر إزاء عجائب مخلوقات الله - جلّ شأنه - وبإيمانه وقدرته وتأمله لها (8)، ولهذا  
يقول الدكتور نافع محمود : « يبدو أن الشعراء الأندلسيين عندما يسمعون تغريد  
الطيور كانوا يجدون في ذلك صورة تحرك مكانهم ونغمة تهزّ قلوبهم وتشدهم إلى

(5) ديوان أبي إسحاق الإلبيري 34-35.

(6) اتّجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري تأليف د. نافع محمود. دار الشؤون

الثقافية العامة. بغداد 1990. ص 193.

(7) نفسه.

(8) نفسه.

التناغم مع الطيور فيأتي شعرهم صورة صوتية للأغاريذ العذبة» (9). ومن ذلك أيضا قول أبي إسحاق الإلبيري :

قد بلغت الستين ويحك فاعلم  
أنت مثل السجل ينشر حينا  
فشفيعي إليه : حسن ظنوني  
وله الحمد أن هداني لهذا  
أن ما بعدها عليك تلوّم  
ثم يطوى من بعد ذاك ويختم  
ورجائي له، وأنّي مسلم  
عدد القطر، ما الحمام ترنم (10)

وهكذا نجد هيمنة الروح الدينية على فكر الإلبيري، وما أكثر ما كان يدور من الأبيات حول هذه المعاني اللطيفة، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر : قول عبد الكريم القيسي البسيط :

لبايتي بكي الحمام هديلا  
وقال ابن خاتمة الأنصاري في موشحه :

لغناء الحمام في قلبي  
ذكرتني معاهد القرب  
إن تحل يا مناي عن  
وقول ابن خاتمة أيضا في موشحة :

يا حماما شدا على الرد  
إن خطرت على ديار حيي  
بالنبي يا حمام  
خصها بالسلام (13)

(9) نفسه.

(10) ديوان أبي إسحاق الإلبيري 50-51.

(11) المختار من الشعر الأندلسي وفصول في شعر المغرب وصقلية وفي الموشحات والأزجال، مدخل إلى تاريخ الأدب العربي في الأندلس والمغرب وصقلية لمحمد رضوان الداية ص 223. دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ، دار الفكر دمشق سوريا ط3. 1992.

(12) نفسه ص 317.

(13) نفسه.

ومن ذلك قول يوسف الثالث في التآبين :

على جدثٍ ثاوٍ بريةٍ نازح  
كأن لم يمت ميتٌ سواك ولم يكن  
تسحُ جفوني أو تقرُّ جوانحي  
بُكائي لترجيح الحمام الصَّواحِ (14)

ويقول ابن الجياب الغرناطي في موكب الحجيج :

تمادى دُعا داعي الرِّشاد مُردِّداً  
لبؤهُ شوقاً كالحمام صَوادِحًا (15)

ويقول إبراهيم بن سهل الإسرائيلي وهو على ضفاف الوادي الكبير .

غيري يميل إلى كلام اللَّاحي  
لا سيما والغصنُ يزهر زهره  
ويمد راحته لغير الراح  
ويميل عطف الشَّاربِ المُرَّاح  
وقد استطار القلبُ ساجعُ أيكَةٍ  
قد بانَ عنه جناحه عباله  
من كلِّ ما أشكوه ليس بصاح  
من جانحٍ للعجز خلف جناح (16)

ويقول أبو الحسين محمد بن سفر وهو على وادي المرية .

واشرب على شِدو الحمام فأنه  
أُترأه أطربه الخليجُ وقد رأى  
أشهى إليّ من الغريض ومغبد  
تصفيقه تحت الغصون الميِّد (17)

ومن أوصافه البديعة وهو بالقرب من الوادي الكبير :

فتضاحكت ورقُّ الحمام بدوِّه  
هزءاً فضمَّ من الحياء إزاره (18)

ومن ذلك قول عمر بن عمر القاضي :

هم نظروا لواظَّها فهاموا  
وأذكر قَدَّها فأنسوح وجداً  
وتشرب لبَّ صاحبها المدام  
على الأغصان ينتدب الحمام

(14) ديوان يوسف الثالث ملك غرناطة تحقيق المرحوم عبد الله كنون ص 20.

(15) ابن الجياب الغرناطي حياته وشعره للدكتور علي محمد النقراط ص 269. دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

(16) في الشعر الأندلسي لكارسيا غومس ص 142.

(17) نفسه ص 162.

(18) نفسه ص 161.

وأعقّب بينها في الصدر غمّا إذا غرّبت ذكاء أتى الظلام (19)

ومن ذلك قول محمد بن غالب الرّصافي في مجلس شراب :

وعشّي رائقٌ منظره قد قطعناه على صرف الشّمول

حبّذا منزلنا مغتبقا حيث لا يطربنا إلا الهديل (20)

ومنه قول علي بن سعد الخير في وصف ساقية ودولاب :

لله دولابٌ يفيض بسلسل في جنة قد أئنتت أفنانا

أضحّت تصارحه الحمائم شجوها فيجيبها ويرجع الألحانا (21)

ومن خلال هذه النماذج الشعرية في ذكر الحمام يتبين لنا أنها تتّصف بالرقّة

والعاطفة القويّة وتصوير مكانن النفس، ومع ذلك نجد الاستاذ عبد الله خضر يقول :

« وقد نستطيع أن نذكر أمرا آخر في بكاء الحمام كما يصوّره بعض الشعراء وهو

لفت النظر إلى أنه ليس كلّ من يبكي أو يظهر الحزن يعبر عن مصاب جل في نفسه

أو ذوبه، وإنما قد يكون لمجرد الترنم والنغم لا ظلّ له في أعماق القلب وأغوار

النفس... » (22).

وبعد ذكر بعض ما يتّصل بالحمام آتي ببعض النماذج من مختلف الطيور التي

ذكرت أسماؤها قبل، ومن ذلك قول أبي الحجاج المنصفي في وصف زورق :

وسابح بان لا تثنّى قوائمه كالصقر ينحطّ مذعورا لعقبان

كأنه مقلّة للجوّ شاختة ومن مجاذيفه أهداب أجفان (23)

وغالبا ما نؤوّل تصوير الصقور والنسور خاصّة بكون الأعداء يتخطّفونهم

ويترصّدونهم ليفعلوا بهم فعلها، لأنّ نفس الأندلسي في عهد الطوائف كانت ممزّقة

(19) نفسه ص 163.

(20) نفسه ص 176.

(21) نفسه ص 177.

(22) وصف الحيوان في الشعر الأندلسي ص 117.

(23) في الشعر الأندلسي ص 179.



ضعيفة لا تأمن غوائل هذا العدو القوي الذي لا يرضى إلا ولا عهداً.

ومما يتصل بهذا أيضاً قول أبي إسحاق الإلبيري في وصف عقاب :

ولقد رأيت من الزمان عجائبا  
فوجدت إخوان الصقاء بزعمهم  
ولربما قد شذ منهم نادر  
وإذا نبا بي منزل أو رأني  
ولقد عجبت لمؤمن في شذقه  
لما رأيت الأرض أصبح ماؤها  
جريتها بمواردي ومصادري  
يلقاك أمحضهم بعرض سابي  
وأصولنا أن لا قياس بنادر  
صفت عنه كالعقاب الكاسر  
جرس كناقوس بيعة كافر  
رئنا كفتي منه حسوة طائر (24)

ومن أبداع الأوصاف قول أبي محمد بن صارة الشنتيريني في وصف الباذنجان :

ومستحسن عند الطعام مخرج  
أطافت به أقماعه فكانه  
غذاه نمير الماء في كل بستان  
قلوب نجاح في مخالب عقبان (25)

ومن الأوصاف ما قاله عبد العزيز بن القبطورنة في استجداء باز :

يا أيها الملك الذي أبأؤه  
حليت بالنعم الجسم جسيمة  
شم الأنوف من الطراز الأول  
عنقي فحلّ يدي كذاك بأجل (26)  
والأجل هو البازي.

ومن ذلك قول علي بن لبّال يصف زوارق نهر :

بنفسي هاتيك الزوارق أجريت  
وقد كان جيد النهر من قبل عطلا  
كحلبة خيل أولا ثم ثانيا  
فأمسى به في ظلمة الليل حاليا  
برجل يحاكي أرنا خاف بازيا (27)

(24) ديوان الإلبيري ص 78.

(25) في الشعر الأندلسي ص 137.

(26) نفسه ص 134.

(27) نفسه ص 143.

ولا شك في أن الشاعر كان يصور نفسه وقهر العدو له سواء بسواء أي كما يصيد  
البازي الأرنب. ومن الأوصاف ما قاله أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا في مديح العالي  
إدريس بن يحيى بن حمود صاحب مالقة وقد ورد في ذلك لفظ الغراب :

قد بدا لي وضح الصبح المبين فاسقينها قبل تبكير الأذنين  
وانبرى صبح الدجى عن صبحه كغراب طار عن بيض كنين (28)

ومن الأوصاف التي جمعت بين وصف الديك والطاوس والبط قول أسعد بن  
إبراهيم بن بليطة (واصفا ديكا) :

وقام لها ينعى الدجى ذو شقيقة يُدير لنا من عين أبقائه سقطا  
إذا صاح أصخى سمعه لأذنيه وبادر ضربا من قوادمه الإبطا  
كان أنوشروان أعلاه تاجه وناطت عليه كف مارية القرطا  
سبى حلة الطاوس حسن لباسها ولم يكفه حتى سبى المشية البطا (29)

ومما يصور الوضع الأليم والحالة المزرية التي كان يعيش فيها الأندلسي أمام العدو  
من الأحوال النفسية الممزقة قول شاعر مجهول في التائيّة المشهورة :

فجاءت علينا الروم من كل جانب بسيل عظيم جملة بعد جملة  
ومالوا علينا كالجراد بجمعهم بجد وعزم من خيول وعدة  
فكنّا بطول الدهر نلقى جموعهم فنقتل فيها فرقة بعد فرقة  
وفرسانهم تزداد في كل ساعة وفرساننا في حال نقص وقلة (30)

ومما يبرز ذلك الشعور أيضا قول يوسف الثالث بعد أن كتب إليه أبو عثمان الإثري  
وقد قرب ركبهم بمرج غرناطة من بلدة إليورة ونبه على شيء من الدجاج وجهها  
منفردة عن فروجها :

(28) نفسه ص 129.

(29) نفسه ص 155.

(30) انظر كتاب سقوط غرناطة لجيمس مونرو ترجمة محمد الشرقاوي. دار الهداية 1984.

أَفَلَا نَظَرْتَ إِلَى الذَّجَا  
أَوْ مَا أَضْحَتْ لَدَيْكَ هَا  
وَصُرَاخُهُ فِي لَيْلِهِ  
بَعَثَ الْعِيَالَ هَدِيَّةً  
أَسْتَأْذُكُمْ لَمْ يَرَعْ لِي  
جَانِبْتُ مَنْ لَا يَنْتَنِي  
ج بِمَنْظَرِ الْفَطْنِ الْأَرِيبِ  
إِذَا صَاحَ يَا أُنْسَ الْغَرِيبِ  
إِذَا قَالِ مَنْ فَوْقَ الْكُثِيبِ  
لَلْبَثِ صَبْرَتْ وَلِلْوَجِيبِ  
قَلْبًا تَرْدَى فِي الْقَلِيبِ  
وَدَعَوْتُ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ (31)

إننا نفهم من ألفاظ القصيدة كثيرا من معاني الانكسار والخيبة والانهزام، فالذي هو الحامي للذمار، ثم انظر لفظ أنس الغريب ثم الصراخ. وهذا يدل على الاستجداء، ثم ذكر الليل وما فيه من معاني الحزن والغم. هذا بالإضافة إلى الوجيب والبث أي الحزن الشديد. ونبلع بهذا النص إلى قمة الحزن في السطر الأخير من البيت الأخير «ودعوت من لا يستجيب»، وهو يشبه قول الشاعر.

لَقَدْ أَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا  
وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تَنْادِي  
تلك بعض المعاني التي يمكن أن تعرض للقارئ للوهلة الأولى. ومما يصور كذلك فقدانه الخلّ الوفي والصديق المخلص والإنسان النقي عقلا وخلقا قول أبي إسحاق الإلبيري :

فَمِنْ الرَّأْيِ أَنْ تَكُونَ جَبَانًا  
وَالْتَقَى الْمَوْفَقُ الْبَرُّ مِنْهُمْ  
سَامِرِيَا يَدِينُ بِالْأَنْزِوَاءِ  
عَدَمٌ كَالسَّمَاعِ بِالْعَنْقَاءِ (32)

والعنقاء طائر خرافي لا حقيقة له، كما لا حقيقة لمن نثق به في مثل هذا الزمان الذي يسوده الغش والكذب والنفاق والمين والذي يروغ منك كما يروغ الثعلب.

وخلاصة القول إننا عندما نذكر الطيور في هذه القصائد الأندلسية لا نغفل الحياة النفسية والأوضاع الاجتماعية والسياسية للمجتمع الأندلسي. ولا ننسى أن الأندلس

(31) ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث ص 13-14.

(32) ديوان الإلبيري ص 5-84.

خاصةً والغرب الإسلامي عامةً كانا يعرفان بعض الطيور وصفاتها وطبائعها أكثر من غيرها من البلدان، فقد ذكر عبد الرحمان البلدي أن أفضل الشواهين في ما قاله أهل التجربة مأواها أقصى المغرب وبلاد مصر وما يلي من جانب بحر الشام<sup>(33)</sup>، ويقول أيضاً عن الصقر والعقاب الصيدي :

« ليس في أنواع العقبان شيء نافع في الاصطياد وغيره، ومعدنه الجبال العالية في ناحية أرمينية وبلاد الأكراد وغيرهما لكنه قليل الوجود. وقد توجد أيضاً في بلاد المغرب وهي أجود معادنها »<sup>(34)</sup>. وأما عن العقبان فقد قال الغطريف : « إن أول من لعب بالعقبان أهل المغرب وأن حكماء الروم لما رأوا العقبان وشدتها وقوة سلاحها وعظم خلقها قالوا هذه التي يقوم خيرها بشرها »<sup>(35)</sup>. وهذا يدل على أن الشعراء الأندلسيين والمغاربة عندما يصفون الطيور كانوا على خبرة تامة بطبائعها وأسرارها، ويكفي على ذلك دلالة هذه النصوص لعبد الرحمان البلدي المصري.

(33) الكافي في البيزرة تأليف عبد الرحمان بن محمد البلدي تحقيق وتقديم وإحسان عباس وعبد

الحفيظ منصور ص 71-72 ط 1. 1983.

(34) نفسه ص 73.

(35) نفسه ص 101.